حيفا : ماضيها ومستقبلها

لحضرة الاب الفاضل ماري جوزف الكرمليّ

هذه اللمحة مقتطفة من خطبة القاها حضرة الاب في حيفا في ٢٥ تشرين الاول من السنة المنصرمة في انتاح جمعية الشبّان الكاثوليك . وقد اضفنا اليها بعض نصوص اخذناها عن موارد قديمة ثابتة تتمّة للفائدة ل . ش

﴿ اسمها ﴾ انّ اسم حيفا مشتقٌ من العبرانية المستحدثة اي التلموديّة وقد ورد في التلمود على صورة حيفه (חיפה) ومعناهُ فيها الفرضة والمرفأ. وقد اشتقهُ البعض من العربية من الحَيْف او الحَيَف وهو حدُّ الحجر الجارح قالوا انّها دُعيت بذلك لوقوعها على شاطئ البحر عند الصخور الكبيرة

ومن الاسماء التي اشتهرت بها حيفا قديمًا سيكمينوس Συκάμινος ذكرها اسطرابون بهذا الاسم في جغرافيّته (ك ١٦ ف ٢ ع ٢٥) وكانت في ايّامهِ خرابًا . وكذلك ذكرها بلينيوس الطبيعيّ (ك ٥ ف ١٧) ويوسيفوس المؤرخ في العاديّات اليهوديّة (ك ١٣ ف ١٢ ع ٣) . وسيكمينوس باليونانية شجر التوت لعلّها تكون دُعيت بذلك لكثرة التوت فيها . والمسيو غيرين (Guérin) يزعم انّ اسمها مشتقّ من سيكوموروس συκόμορος وهو الجميز باليونانية . والاوّل اقرب الى الاصل كما ترى

ومن اسماء حيفا ايضًا پورفيريا او پورفيريون وهي غير پورفيريون الواقعة في شمالي صيداء بينها وبين بيروت . ومن الادلّة على هذا القول ما جاء في التلمود (جمارة شبّاث ك ٢٦ ع ١) انّ صيد صدف الارجوان (وهو معنى پورفيريون) يكون بين صور وپورفيريون جنوبًا

وقد ذكر غليلموس الصوريّ (في تاريخ الصليبيين ك ٩ ف ٢ و ١٣) انّ حيفا الساحلية في لحف الكرمل كانت تدعى پورفيريا . وكذا ورد في تاريخ جاك دي ڤتري الذي صار مطرانًا على عكّا سنة ١٢١٦ (ف ١) ولا عجب لانّ الاصداف التي كان يُستخرج منها اللون القرمزي لاصطباغ الارجوان كثيرة في سواحل فينيقية من

صورة جبنا

Bonfils

لحف الكرمل جنوباً الى ما وراء صيداء شمالاً وقد اغتنى به الفينيقيُّون وربحوا به الارباح الطائلة وباعوهُ للقياصرة والملوك ولاهل الثروة فصار الارجوان كناية عن شارة الملك والرتب السامية فيقال « لبس فلان الارجوان » اذا جلس على سدَّة الملك . وكذلك الارجوان الروماني لشارة الى رتبة الكرادلة وهم امراء الكنيسة واعيانها (١

﴿ موقعها ﴾ لا بُدَّ من التمييز بين حيفا العتيقة وحيفا الجديدة . فان هذه اي الحالية حديثة بُوشر ببنائها سنة ١٧٦١ للميلاد . ومن ثم كل ما جاء في ذكرها قبل هذا العهد انَّما يصدق عن حيفا العتيقة فقط

وكانت حيفا القديمة لاصقة بجبل الكرمل موقعها قريباً من رأس هذا الجبل الشهير اي على بعد كيلومترين بنيف من حيفا الحالية جنوباً . وقد بقي منها حتَّى اليوم بعض آثار تدلُّ على مكانها فمن ذلك مدافن قديمة ترى بلحف جبل الكرمل على شكل ثلاثة قناطر مقوَّسة وكان يجعل في كل قنطرة ناووس وربَّما كانوا يتَّخذون بدلاً من الناووس حوضاً يغرونهُ في قلب الصخر . وقد وجد مثل هذه المدافن قريباً من مقبرة اليهود وآثارها كانت ذات شأن بقيت الى أيامنا هذه الاخيرة

ومن عاديَّات حيفا القديمة برج استولى عليه الخراب يدعى برج الزورة كان على شكل مستدير وموقعهُ فوق صخر يشرف على البحر . وكان لهذا البرج في خارجه سورٌ يقيه وعلى يمينه وشماله داخل السور ابنيةٌ اخرى واكثر هذه البنايات في حالة الخراب وكان هذا البرج قد أُقيم لحماية مدخل المرفإ الطبيعي الصغير الواقع شرقي شمالي حيفا العتيقة

ومنَّن احسنوا تعريف موقع حيفا العتيقة الراهب الدومينيكي بركهرد (Burchard)

---

(١) يستخرج اللون القرمزي من صدف يدعى باللسان العلمي مركس (murex) وهو يُعرف في هذه البلاد ببوق العجرم . وهو نوعان نوع منهُ تكون مادَّتهُ الصبغيَّة قرمزية زاهية وهو الصنف الثاني الثمن . ونوع يكون لونهُ بنفسجياً . والمادَّة الملوِّنة توجد ضمن غدَّةٍ تُرى بين رأس الحيوان وكبده في الجهة العليا . وهذه المادَّة ليس لها في الاصل لونٌ واذا برزت للهواء والنور تلوَّنت شيئاً فشيئاً حتى يصير لونها قرمزياً ثابتاً . قيل انَّ اكتشافها كان بطريق الصدفة وذلك انَّ كلب راعٍ كسر صدفةً منها يأكل ما في قلبها فقضغ للغدَّة المتضمنة لتلك المادَّة فاصطبغ فوهُ بلونها الاحمر . والطيريُّون يخصُّون صدف المركس باسماء مختلفة على حسب تكوينهِ وهيئاتهِ والصنف القرمزي يكون متطاولاً ولهُ منفذ للنفس ومن كل جهة ثلاث او اربع شعب ناتئة

في القرن الثالث عشر فقال : « انَّ بين نهر قيشون (وهو نهر المقطَّع الحالي) ومدينة حيفا مسافة فرسخ (اعني مسير ساعة) وبينهـا وبين عكَّا نحو ثلاثة فراسخ ». وهو كلام يطابق موقع حيفا العتيقة دون الحديثة

وكذلك دقَّق في وصفهـا الشريف الادريسي حيث قال : « ومن قيسارية الى مدينة حيفا على الساحل يومان وحيفا تحت طرف الكرمل وهو طرف خارج في البحر وبه مرسى لارساء الاساطيل وغيرها . ومدينة حيفـا هي فرضة لطبرية وبينهما ثلاث مراحل خفاف »

امَّا حيفا الحالية فكان ابتناؤها على يد ظاهر العُمر الزيداني الشهير . فانَّ هـذا كان من القيسيين المتاولة قلَّدهُ الامراء الشهابيُّون ولاية عكَّا . فلمَّا مات الامير بشير الشهابي الاوَّل انتهز الفرصة فاستبدَّ بالسلطة واستعان بقومه لفتح بعض بلاد الجليل ومدن الساحل منها حيفا وجعل مركز ولايته في هذه المدينة . ولمَّا وجد المدينة القديمة لا تفي بمرامه عمد سنة ١٧٦١ الى نقلها الى مركزها الحالي فجعلها في وسط الجون على مسافة نصف ساعة من حيفا القديمة واتَّخذ لبنائها حجارة البلدة السابقة . ثمَّ بنى سوراً وبرجاً مشرفاً على البلد ترى ردومهـا الى يومنا هذا . واضطرَّ اهل حيفا العتيقة الى ان ينتقلوا الى المدينة الجديدة ويتَّخذوا فيهـا سكناهم ثم هدم كل التحصينات التي كانت في المدينة العتيقة . فابتدأ منذ ذاك تاريخ حيفا الجديدة

﴿ تاريخهـا ﴾ يرتقي الى ايَّام الفينيقيين وكانت احدى مدنهم ولمَّا فتح بنو اسرائيل على عهد يشوع بن نون بلاد فلسطين جعل حيفا في حصَّة سبط منسَّا . وتقلَّبت عليها الاحوال فزهت وخربت مرَّات عديدة على عهد المصريين والاشوريين والفرس واليونان . وملكها السارقيُّون . وذكر يوسيفوس اليهودي (١ انَّ في سنة ١٠٤ قبل المسيح دعا اهل عكَّا بطلميوس المعروف بلاثيروس ليساعدهم على ردّ غارة اسكندر جنَّاي فلمَّا قدم لم يمكِّنوهُ من الدخول في مدينتهم . فاضطرَّ الى ان يسير بسفنه الى حيفا (وهو يدعوها سيكمينوس كما سبق) واترل فيها جنوده وكان عددهم ثلاثين الفاً

ثمَّ دخلت في حكم الرومان لمَّا فتح بمبيُوس بلاد الشام وسواحل فلسطين . وقد

---

١) راجع عادياته اليهوديَّة ك ١٣ ف ١٢

وجدها اسطرابون وبلينيوس بعد ذلك بقليل اسماً بلا جسم لما اصابها من الخراب. لكنها لم تلبث ان تنبعث من دمارها. وقد ذكرها اوسابيوس القيصري في معجم الأعلام والقديس ايرونيموس من بعده. وكلهم يدعونها سيكمينوس

ثم صارت الى العرب بعد الفتح الاسلامي فملكوها الى عهد الصليبيين وحصّنوها. قال ناصر خسرو العجمي في كتابه « سفر نامه » الذي صنّفهُ في القرن الحادي عشر: « حيفا على شاطئ البحر فيها نخيل واشجار كثيرة. وقد رأيت قوماً من العملة كانوا يعبّرون فيها السفن المعروفة بالجودي »

ولمّا قدم الصليبيُّون الى الاراضي المقدّسة فتحوا حيفا فيما فتحوا وجعلها غدفروا دي بوليون تحت امارة تنكريد مع طبريّة وبلاد الجليل. قال ياقوت في معجم البلدان: « حيفا حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا لم تزل في ايدي المسلمين الى ان تغلّب عليها كندفري (غدفروا) الذي ملك بيت المقدس في سنة ٤٩٤ وبقي في ايديهم الى ان فتحهُ صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة ٥٧٣ (١١٨٠ م) وخرّبهُ »

وكانت حيفا حصينة جدًّا فان الصليبيين لم يمكنهم فتحها الّا بعد حصار خمسة عشر يوماً وذلك سنة ١١٠٠ للمسيح وكانت للبنادقة عمارة ساعدتهم بحرًا على ذلك

وبعد خرابها على يد صلاح الدين عاد الفرنج واستولوا عليها مع عكّا وصيدا. وحصّنها ملك فرنسا القديس لويس التاسع فبقيت في ايدي الفرنج الى سنة ١٢٩١ حيث فتحها الملك الاشرف خليل بن الملك المنصور قلاوون مع عكّا وصور وصيدا. ولم تزل تحت ولاية ملوك مصر السراكسة الى ان صارت للملوك آل عثمان ففتحها السلطان الغازي سليم الاوّل مع بقية الاقطار الشامية سنة ١٥١٦

وقد سبق انَّ ظاهر العمر غير مقامها ونقلها الى حيفا الجديدة وتولى امرها وصارت من بعده الى احمد باشا الجزّار الذي نشر لواء العصيان على الدولة السنية. فسار اليه نابوليون الاوّل وحاصرهُ في عكّا. وكان كليبار احد قوّاده هجم على حيفا فافتتحها. على انَّ نابوليون ما عتّم ان رجع الى مصر فارسلت الدولة العليّة جيوشها المظفّرة لمحاربة الجزّار وارجعت حيفا تحت سلطتها. وكذلك دخلها ابراهيم باشا سنة ١٨٣٢ فبقيت تحت امرته الى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ فعاد الامرُ الى نصابه

﴿ اهلها ﴾ لم يكن اهل حيفا يتجاوزون ثلاثة آلاف نفس قبل اربعين سنة.

اما اليوم فقد اضحت بلدةً عامرة يتوارد اليها الناس حتى بلغ عددهم نحو ١٢٠٠٠ يبلغ الكاثوليك منهم ٤١٠٠ اكثرهم الروم الكاثوليك (٣٠٠٠) ثمَّ الموارنة (٦٠٠) ثم اللاتينيُّون (٥٠٠). وعدد الروم الارثدكس نحو الفين وكذلك عدد المسلمين والباقون اسرائيليُّون. وفي حيفا مستعمرة المانية اكثر اهلها من شيعة الهيكليين يزعمون انهم يريدون تشييد هيكل اورشليم وهم اصحاب نشاط وعمل

﴿ مقامها ومستقبلها ﴾ انَّ لحيفا مقاماً يجعلها من المدن الساحليَّة المعتبرة. وذلك اوَّلاً لوقوعها عند رأس الكرمل اذ يسهل تحصينها بالمعاقل الحريزة لردّ غارات العدوّ. وثانياً لانَّ طرقًا عديدة تفضي الى حيفا فانَّ السابلة لا بُدَّ لهم من المرور بها ذهاباً واياباً اذا تبعوا الطريق الساحليَّة. فضلًا عن انها بابٌ لبلاد الجليل والاقطار الشاميَّة. ولذلك قد وطئها جنود الدول الفاتحة كالاشوريين والمصريين واليونان فقُضي عليهم ان يفتحوها اوَّلاً قبل ان يزحفوا الى داخل البلاد ويحاربوا اعداءهم في المرج وسهول نجدّو وحذاء جبال جلبوع وجرمون. وثالثاً لانها فرضةٌ لطبريَّة وحوران اليها تُنقل مرافق تلك البلاد. وفيها مع ذلك مرفأٌ طبيعيٌّ حسن ترسو عنده السفن بمأمن من انواء البحر. وزد على ذلك انَّ قضاءها كثير القرى والمزارع جيّد التربة نامي الارزاق. وفي جوارها يُصطاد الاسفنج واصناف الاسماك. وكل ذلك من شأنه ان يزيد تجارتها حركة وسوقها رواجاً. وما قولنا بها اذا ما تمَّت السكَّة الحديديَّة التي باشرت الحكومة السنيَّة بانشائها ولنا الامل الوطيد انها تتمّ قريباً هذا المشروع العظيم فتتصل حيفا بسكَّة الحجاز من جهة وبدمشق وحمص وحماة من جهة أخرى

ولذلك ترى الناس يتقاطرون اليها من كل فجٍّ لموقعها التجاري وحسن هوائها. وقد أُنشئت فيها المدارس العامرة الذكور والاناث وتعدَّدت المشروعات الخيرية لاسيَّما بين الطوائف الكاثوليكية

ولنصارى حيفا تذكارٌ حسن من شأنه ان يحرّك عواطفهم الدينيَّة وهو انَّ مدينتهم تقدَّست بمرور عائلة الناصرة فيها. فانَّ الانجيل الطاهر يذكر ان القديس يوسف لمَّا كان عائدًا من مصر ومعهُ السيِّد المسيح الطفل ومريم العذراء المجيدة خاف ان يعود الى اليهودية لتملك ارخلاوس بن هيرودس عليها فاشار اليه الملك ان يذهب الى الناصرة. لكنَّ طريقهم الى الناصرة لم تكن امينةً من خطر ارخلاوس الَّا بان يتَّبع

شاطئ البحر فسير من مدينة رومانيَّة الى مدينة رومانيَّة أخرى دون ان يدخلوا مدينة يهودية ومن ثم قضي عليهم أن يمرُّوا في حيفا. وكانت الطريق الساحلية الرومانيَّة تمرُّ في حيفا العتيقة. وكانت تقطع المقام المعروف بالخضر وتمرُّ بالزورة وتتبع تقريباً شاطئ البحر مجتازةً امام باب كنيستنا اللاتينيَّة. وهذا فكرٌ تقويّ يبعث في اهل حيفا شواعر الشكر والحبّ نحو السيد المسيح الذي وطئ ارضهم وباركها بمروره فيها

ومن المشاهير الذين شرَّفوا حيفا يمكننا ان نذكر القديس يعقوب ناسك الكرمل الذي ذكرهُ البولنديون في تاريخ ٢٧ كانون الاوَّل. وفيها نشأ الامبراطور قسطنطين بورفيروجنيت الشهير بعلمهِ الذي توفي سنة ٩٥٩ للميلاد

لكن اكبر مفاخر حيفا انها تحت حماية سيِّدة الكرمل التي جعلت نظرها على هذا الجبل المقدَّس المطلّ على ربوعها مع شفاعة النبيّ العظيم الياس الحيّ الذي شرَّف بقداستهِ واعمالهِ الجليلة هذه الاماكن. فاليها نتوسل بان تتقدَّم هذه المدينة كل يوم في سبيل النجاح ليس الماديّ فقط بل الديني والادبيّ ايضاً وفقاً لقولهِ تعالى: اطلبوا اوَّلاً ملكوت الله وبرَّهُ والباقي كلهُ يزاد لكم

المخطوطات العربيَّة في خزانة كليَّتنا الشرقيَّة

للاب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

٢ الكتاب المقدس (العهد الجديد – تابع)

(العدد ٦) نسخة حديثة من الانجيل الطاهر عدد صفحاتها ١٠٦ طولها ٢٧ سنتيمترًا في عرض ٢٢ س. نُقلت عن نسخة قديمة وجدها الاديب اسكندر صيفي تريل لندن. وهي مترجمة عن السريانية نقلها «مار عبد يشوع الصوباوي برسم الملك المعظَّم العالم العادل المؤيَّد المظفَّر المنصور فخر الدين» وفي عنوانها ما يلي:

«كتاب الانجيل المقدَّس المفصَّل من الاناجيل الاربعة متَّى ومرقوس ولوقا ويوحنا المرتَّب للقراءة في دور السنة آحاداً واعياداً ومواقيت الاصوام والذكارين. ترجمهُ القديس الطاهر النفيس مار عبد يشوع خادم كرسي المطرنة جبرفركيا (Χωραγία ايالة) نصيبين وارمينيا واعمالها ترجمهُ